هكذا كتبوا على الطين ....

الدكتور فاضل عبدالواحد علي
استاذ السومريات/قسم الآثار
كلية الآداب/جامعة بغداد

تعريف بالبحث :ـ

يتضمن هذا البحث الموسوم « هكذا كتبوا على الطين » ثلاث عشرة فقرة تتعلق بشكل أساسي بالتعليم والمدرسة في بلاد وادي الرافدين • ومحتويات البحث مستقاة من النصوص المسمارية أساساً • وكان بالامكان الاستطراد في البحث ليتناول جوانب اخرى ، ولكن طبيعة المناسبة تحتم التركيز دون الخوض في مزيد من التفاصيل • وقد حرصنا في خلال كتابة البحث على انتقاء المواضيع الرئيسية التي لها مساس مباشر بالتعليم والمدرسة مما تشكل أركاناً أساسية في عملية التعليم في العصور القديمة والتي تشكل بدورها تراثاً أصيلا علينا استلهامه في المسيرة الحاضرة نحو محو الامية والتعليم الالزامي في القطر •

ولابد لنا من التنويه هنا الى حقيقة مهمة وهي انه ما زالت هناك مادة غزيرة للباحثين في مجال التعليم في بلاد وادي الرافدين وخاصة ما يتعلق منها بدور النساخ (الكتاب) في عملية حفظ ونقل التراث الحضاري عبر الأزمان القديمة ، ودور اولئك الرواد الاوائل في انشاء دور التعليم (المدارس) والمكتبات وفي استنباط أقدم أساليب فهرسة للكتب (ألواح الطين) وتأليف أقدم المعاجم اللغوية •

كما نود الاشارة هنا الى مسألة جوهرية اخرى الا وهي ان الأقدمين

أنفسهم أدركوا أهمية وخطورة تدوين « الكلمة » في حفظ منجزات البشرية عبر التاريخ • اننا نشير هنا الى ما سجلته النصوص المسمارية عن بطل قصة الطوفان البابلية « اتراخاسيس » الذي قرر هو وأهل مدينته « سبار » أن يدفنوا ما بحوزتهم من « كتابات » في مكان آمن خشية ألا يضيع ذلك الاكتشاف العظيم من أيـــدي السلف بعد أن يأتي الطوفان على ما في الارض • ولحسن الحظ فأن « الكلمة » التي كتبوها بقيت محفوظة كما هي على « الطين » وبذلك فأنهم أوصلوا الامانة الينا كاملة عبر المسيرة الزمنية الطويلة •

١ ـ مقدمة البحث :ـ

شهدت بلاد وادي الرافدين وعلى وجه التحديد القسم الجنوبي منها مولد أول طريقة للتدوين في حدود ٣٠٠٠ ق•م• فقد كشفت التنقيبات الآثاريـة في أحد معابد مدينة الوركاء (وفي الطبقة الرابعة على وجه التحديد) عن ما يزيد على ألف رقيم مدونة بأقدم أشكال الكتابة والتي تعرف بالكتابة الصورية • ويتفق العلماء على أن الفضل في التوصل الى هذه الطريقة في التدوين يعود الى السومريين وان هذه الالواح عبارة عن وثائق اقتصادية تسجل واردات المعبد الذي ظل في مختلف العصور التاريخية محتفظاً بدوره الفعال في المجالات الاقتصادية حيث كان يمتلك الاراضي الزراعية ويستخدم في استغلالها الفلاحين والعمال على اختلاف أصنافهم ويقوم بعملية الاقراض بفوائد معينة •

وتطورت هذه الكتابة الصورية بمرور الزمن حتى أصبحت تعرف بالكتابة المسمارية لانها أصبحت فيما بعد تشبه المسامير ، وهذا ما سنأتي على توضيحه بعد قليل • وهناك حقيقة معروفة ينبغي الاشارة اليها في هـذا الموضع وهي ان بلاد وادي الرافدين كانت مركز اشعاع حضاري على شعوب المنطقة كلها في كثير من المفاهيم والمعتقدات والمنجزات التقنية ، لكن تأثير بـلاد وادي الرافدين في استنباط أقدم وسيلة للتدوين ، أي التعبير عن الافكار بصورة أو رمز ، كان من

أبرز ما أسهم به العراقيون القدماء في مجال تطوير شعوب العالم القديم • ومعروف ان الكتابة في وادي الرافدين تظهر لنا لاول مرة وهي في أبسط وأقدم أطوارها على عكس الكتابة الهيروغليفية في وادي النيل التي نجدها متطورة في أقدم أشكالها المعروفة لدينا • ترى هل أخذ المصريون القدماء فكرة التدوين ، رغم اختلافهم في الطريقة عن بلاد وادي الرافدين علماً بأن هناك من الأدلة ما يشير الى وجود اتصالات بين القطرين[1] في عصور مبكرة من فجر التاريخ ؟

وعلى اية حال فقط استخدم الخط المسماري لتدوين مختلف شؤون الحياة اليومية في وادي الرافدين : الوثائق الرسمية ، المراسلات ، عقود البيع والشراء ، القوانين العلوم والآداب وجوانب كثيرة مما يتعلق بالحياة اليومية والمعتقدات والطقوس والمراسم وغيرها كثير •••

ولم يلبث ان انتشر الخط المسماري من بلاد وادي الرافدين الى منطقة واسعة من الشرق الادنى القديم : من ايران شرقا الى سورية وفلسطين غربا والى بلاد الحثيين في انضوليا شمالا حيث استخدم لتدوين لغات عديدة مختلفة الاصول • وأهم من ذلك كله ان الخط المسماري اصبح في عصر مبكر ، وعلى وجه التحديد ابتداء من ١٩٥٠ ق•م معروفا قراءة وكتابة في منطقة بعيدة عن بلاد وادي الرافدين • اننا نشير هنا الى رقم الطين المكتشفة في كول تبة (كانش) في تركيا والتي تثبت بمالا يقبل الشك وجود مستعمرة أو جالية تجارية للآشوريين في العصر الآشوري القديم والتي كان يؤلف الآشوريون فيها الطبقة المهيمنة اقتصاديا •

وتتابعت التنقيبات الآثارية في الكشف عن مقدار انتشار الخط المسماري ، ومعه نتاج السومريين والبابليين ، في سوريا وفلسطين وبلاد الحثيين والخوريين والميتانيين والاورارتو وبلاد عيلام • فملحمة كلكامش على سبيل المثال ملأت شهرتها العالم القديم باسره حتى انه عثر على بعض اجزائها في بوغازكوى

(عاصمة الامبراطورية الحثية) في تركيا • كما عثر على ترجمة حثية واخرى خورية لبعض اجزاء من الملحمة[٢] • وكان من بين النصوص المكتشفة في تل العمارنة (عاصمة اخناتون) في وادي النيل نسخة من القصة البابلية المعروفة بقصة « ادبا » الذي فوت على نفسه وعلى البشرية جمعاء فرصة الحصول على الخلود[٣] • وفي تل العمارنة ايضا عثر على القصة المعروفة بـ « بطل المعركة » التي تتعلق باستغاثة عدد من التجار في آسيا الصغرى بالملك سرجون الاكدي لنجدتهم من الظلم الذي لحق بهم على يد احد الحكام المحليين • كما عثر على رقيمين من القصة الموسومة « فقير من نفر » في سلطان تبه وهو احد تلول حران في اعالي نهر البالخ[٤] • ولا يخفى على القارىء بطبيعة الحال ان العبرانيين بدورهم قد تأثروا وبشكل واضح بالتراث الحضاري للسومرين والبابليين حيث أحتوت التوراة كثيراً من المفاهيم الدينية والتأثيرات الادبية متمثلة في قصص خلق الكون والانسان وقصة الطوفان وقصة مولد موسى التي تشبه قصة مولد سرجون الاكدي وسفر نشيد الانشاد لسليمان الذي له ما يناظره في الاناشيد السومرية للزواج المقدس الخاصة بالاله تموز وغير ذلك كثير[٥] •••

٢ ـ الخط في بلاد وادي الرافدين (نشأته وتطوره) :ـ

قلنا قبل قليل ان بلاد وادي الرافدين كانت موطن اقدم طريقة للتدوين والتي اصطلح على تسميتها بالكتابة المسمارية (Cuneiform) من اللاتينية (Cuneus) « مسمار » و (Form) « شكل » • وقد سميت بهذه التسمية لان العلامات تتكون من خطوط ذات رؤوس مدببة تشبه المسامير • ويصح لنا ان نطلق مثل هذه التسمية أي « الكتابة المسمارية » على الكتابة في ادوارها المتطورة ، ولكن من الصعوبة بمكان اطلاقها على الكتابة في مرحلتها الاولية القديمة (Archaic) وهي المرحلة الصورية التي كانت فيها العلامات مجرد صور للاشياء التي يراد التعبير عنها •

ويرى بعض الباحثين ان الاختام المنبسطة التي تحمل اشارات مميزة والتي استعملت في عصر مبكر في بلاد وادي الرافدين ربما كانت عاملا محفزا للتوصل الى وسيلة لتدوين الافكار (اي الكتابة) في حين ينفي البعض الآخر ان يكون للختم أي تأثير في هذا المجال[٦] .

ان ظهور الكتابة في العراق القديم يرجع ، كما قلنا ، الى الحاجة لحفظ سجلات بواردات المعبد المتزايدة وبمدخولات دولة المدينة التي صار اقتصادها في نمو مستمر وقد سميت الفترة التي بدأت فيها الكتابة بالظهور بالدور « الشبيه بالكتابي » الذي يعرف بالمصطلح (Protoliterate) وهو الدور الذي كانت فيه الكتابة في اطوارها الاولى ومحدودة في استعمالها وانتشارها . ويشمل هذا الطور النصف الثاني من عصر الوركاء وعصر جمدة نصر .

أ ـ الطور الصوري :ـ

يعتبر الطور الصوري (Pictographic) من اقدم الاطوار في تاريخ الكتابة . والى هذا الطور تعود العلامات على رقم الطين المكتشفة في الطبقة الرابعة من عصر الوركاء سابق الذكر . والمقصود بالكتابة الصورية هو التعبير عن كلمة معينة واحدة بصورة تمثلها . فمثلا عبر العراقيون القدماء في هذا الطور عن كلمة نعجة برسم صورة النعجة كما عبروا عن كلمة بقرة برسم صورة البقرة وهكذا دواليك .

ب ـ الطور الرمزي :ـ

ولم يلبث ان حدث توسع في مدلول العلامات الصورية ، اذ لم تعد العلامات تعبر عن الشيء الذي تصوره فحسب بل اصبحت تستخدم للتعبير ايضا عن افكار ذات صلة بما تمثله تلك العلامات بالاصل . وتعرف هذه المرحلة بالطور الرمزي (Ideoyraphic) . فمثلا استخدمت العلامة الدالة على الشمس للتعبير عن معان مشتقة من الشمس مثل « لامع ، ساطع ، مشرق » وبالمثل اصبحت

صورة الشمس تعبر عن كلمة « يوم » لان شروق وغروب الشمس يمثل يوما • وعلى هذا النحو اصبحت العلامة الصورية للمحراث تعبر عن افعال واسماء لها علاقة وثيقة بهذه الالة مثل الفعل « حرث » والاسم « حارث اي فلاح » • كما صارت صورة القدم تعبر في هذا الطور عن معان ذات صلة بالقدم مثل الفعل « ذهب ، أتى ، قام ••• » •

وفي كثير من الاحيان استعمل العراقيون القدماء اكثر من علامة واحدة لهذا النوع من التعبير الرمزي • فمثلا رسموا صورة الفم + ماء للتعبير عن الفعل « شرب » وصورة الفم + قطعة خبز للتعبير عن الفعل « اكل » وعبروا ايضا عن كلمة « أمة » بصورة ترمز الى المرأة + جبل (لان معظم الاماء والعبيد كان يؤتى بهم من المناطق الجبلية المتآخمة لبلاد وادي الرافدين) •

ج ـ الطور الصوتي :ـ

واخيرا فقد مرت الكتابة في العراق القديم بمرحلة اخرى من التطور هي المرحلة الصوتية (Phonetic) التي يمكن استقصاؤها الى عصر مبكر جدا من ظهور الكتابة والى زمن الطبقة الثالثة من عصر الوركاء على وجه التحديد عندما استخدمت الصورة الممثلة للسهم مرة للدلالة على كلمة « سهم » ومرة اخرى للدلالة على كلمة « حياة » وذلك لأن لكل من العلامتين « سهم » و « حياة » لفظاً واحداً متشابهاً في السومرية هو « تي » (ti) • وبالمثل فان اسم سين (اله القمر) كتب في هذا العصر المبكر بطريقة مقطعية (su-en) وكذلك كلمة « تاج » (في السومرية men) كتبت ايضا بشكل men-en والمقطع الاخير (en) هو مؤشر صوتي قصد منه تحديد لفظ العلامة الصورية للقارىء[٧] • ان تفسير ظاهرة العلامات الصوتية يرجع الى ان السومريين سرعان ما ادركوا استحالة التعبير عن الافكار المجردة كالحياة والموت والضحك والحزن ••• بالعلامات الصورية او الرمزية وحدها ولذلك لجأوا الى استخدام اصوات العلامات فقط مجردة من مدلولاتها الصورية والرمزية معا •

وبهذه الطريقة امكن كتابة اسماء الاعلام والاشياء على هيئة مقاطع صوتية فمثلا ورد اسم قصر تيراش في لكش في كتابات يعود تاريخها الى ٢٥٠٠ ق٠م ٠ بالمقاطع الثلاثة (ti-ra-ás) بصرف النظر عن معنى كل مقطع منها[٨] ٠ ويمثل هذا الطور آخر مراحل التطور في استعمال الخط المسماري حيث لم يصل الى ما يعرف بالمرحلة الهجائية (Alphabetic) .

وقد صاحب هذه التغييرات في مدلول العلامات تغييرات في أشكالها أيضاً ٠ اذ سرعان ما أخذت العلامات تفقد أشكالها الصورية نتيجة لعدة عوامل أهمها طبيعة المادة المستخدمة في الكتابة وهي الطين واستعمال قلم من القصب مثلث النهاية ٠ اذ لاحظ النساخ حقيقة مهمة وهي ان كتابة العلامات على شكل خطوط بضغط نهاية القلم قليلا على الرقيم أسهل وأسرع من عملية رسم صورة الشيء على خطوط منحية أو دائرية ٠٠ ولهذا أخذت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة ، افقية وعمودية وزوايا مائلة كما ان نهاية قلم القصب أعطت هذه الخطوط رؤوساً مدببة تشبه المسامير ٠

ان عدم توصل سكان بلاد وادي الرافدين الى ما يعرف بالكتابة الهجائية أدى بطبيعة الحال الى استخدام عدد كبير من العلامات المسمارية وقد بلغ عددها في العصور الاولى من تاريخ الكتابة ما يزيد على ٢٠٠٠ علامة لكنها لم تلبث ان اختزلت بمرور الزمن حتى أصبحت في حدود ٨٠٠ علامة في نهاية عصر فجر السلالات الثاني (٢٦٠٠ ق٠م٠) ٠

٣ ـ الطين مادة الكتابة :ـ

كان الطين المادة الاساسية التي استعملها السومريون وغيرهم من سكان بلاد وادي الرافدين لتدوين مختلف النصوص والوثائق وبقيت في الاستعمال على مر العصور التاريخية وحتى اختفاء الخط في الادوارة التاريخية المتأخرة ٠ والطين المستعمل في عمل الواح الكتابة يكون عادة من النوع الجيد

أي الخالي من الشوائب • ومن أجل الحصول على مثل هذا الطين فقد كانت الكتلة تغسل بوضعها في اناء مملوء بالماء مما يسهل طرد ما علق بها من شوائب وأعشاب وفي الوقت نفسه يؤدي الى ترسب ما فيها من رمال وأملاح • وبطبيعة الحال فقد كانت هناك طريقة اخرى أسهل للحصول على الطين النقي (الحر) من شواطيء النهر حيث تترسب خلال موسم الفيضان طبقة كثيفة من الطين الذي يكون عادة خالياً من الشوائب بفضل الغسل الطبيعي المتواصل له بفعل أمواج النهر العالية وهي طريقة ما زالت معروفة في القطر للحصول على الطين الى يومنا هذا[٩] •

وبالاضافة الى الطين الذي كان المادة الشائعة للتدوين فقد كتب العراقيون المقدماء على مواد اخرى • فهناك الاختام الاسطوانية التي تحمل عادة كتابات قصيرة ومقتضبة تحفر عادة على الاسطوانة الحجرية للختم وبصورة معكوسة لتظهر بصورتها الطبيعية بعد ان يضغط الختم على لوح الطين • ومن المعروف ان الكتابة على الحجر شملت أيضاً المسلات الحجرية التي كانت تعمل عادة لأغراض تذكارية وأحجار الحدود وغيرها كثير • ومعروف أيضاً ان الآشوريين تركوا سجلات ضخمة مدونة على الحجر تتمثل في الثيران المجنحة والمسلات والكتابات الجدارية على اختلاف أنواعها • وهناك بعض النصوص القليلة مما سجله الاقدمون على صفائح المعادن •

٤ ـ ملاحظات فنية :ـ

أ ـ حجم اللوح :

كانت ألواح الطين تعمل عادة بأحجام مختلفة حسب طول النص ، فهناك الكبير منها الذي يبلغ حجمه أحياناً حجم كتاب اعتيادي (٣٠ سم × ١٦ سم) أو أكبر أحياناً • والاعتيادي منها يكون بحجم أصغر يزيد قليلا على حجم علبة التبغ (في حدود ١٠ سم × ٧ سم تقريباً) • والالواح كبيرة الحجم كانت تقسم

عادة الى حقول (أعمدة) يكون الحقل الأول منها في أقصى اليسار ثم يليه الحقل الثاني والثالث وهكذا ... وبعد أن يتم املاء وجه الرقيم يبدأ الناسخ بكتابة القفا • وفي هذه الحالة يبدأ بكتابة الحقل الاول من أقصى اليمين يليه الحقل الثاني والثالث وهكذا • أي ان ترتيب الحقول (الأعمدة) في الوجه يكون عكس ما هو عليه في قفا الرقيم •

أما في الرقم الصغيرة (الاعتيادية) فهي في الغالب تحتوي على عمود واحد ينتظم بشكل أسطر الواحد منها بعد الآخر • واذا ما انتهى الناسخ من كتابة الوجه يبدأ بكتابة القفا بالطريقة نفسها • وسواء كان الرقيم كبيراً أم صغيراً فان الناسخ يختم النص عادة بوضع خط واضح في نهايته للدلالة على الخاتمة •

ب ـ تسلسل الالواح (الصفحات) :ـ

ويصادف أحياناً ان الناسخ يستعمل ألواحاً اعتيادية الحجم لتدوين نص مطول لا يستوعبه لوح واحد من هذا النوع • وهنا تبرز مشكلة تسلسل الألواح أو ترقيمها بتعبير أصح • ومن أجل ضمان ذلك كان الناسخ يشير قائلا : « ان هذا اللوح هو الاول من التأليف أو السلسلة الفلانية » أو انه كان يعيد السطر الاخير من الرقيم الذي انتهى من كتابته وذلك في بداية الرقيم التالي له فيعرف القارىء من خلال تكرار السطر بأن الرقيم الثاني يلحق ما سبقه مباشرة •

ج ـ قفا اللوح لماذا محدب ؟ :ـ

وهناك ظاهرة معروفة بين المختصين بالمسماريات يستطيعون من خلالها وبصورة سريعة التمييز بين وجه (بداية) اللوح وبين قفاه (نهايته) • فاللوح الصغير من الطين كان يبقى فترة من الزمن ليست قصيرة في يد الناسخ الى أن ينتهي من املاء الوجه بمضمون النص • وفي خلال ذلك يكون لوح الطين قد اتخذ شكلا محدباً قليلا على هيئة راحة يد الناسخ الذي كان يمسك به • ولهذا فأن الاغلبية الساحقة من هذه الالواح تكون مسطحة الوجه محدبة القفا قليلا •

د ـ أغلفة من الطين للحفاظ على سلامة وسرية المضمون :ـ

وفي بعض الاحيان ، خاصة في العقود والمراسلات الشخصية ، كان الرقيم يوضع في « غلاف » خاص من الطين يغلق باحكام ويكتب عليه اسم صاحب أو أصحاب العلاقة • وفي المراسلات الشخصية كان يكتب على الغلاف اسم المرسل اليه واسم المرسل ومن ثم يختم بختمه • وكان الغرض من تغليف اللوح في حالة كونه عقداً مبرماً بين شخصين أو أكثر هو الحفاظ على سلامة النص من أي تغيير أو تحوير لان ذلك لن يكون ممكناً الا اذا كسر الغلاف •

هـ ـ تهشم الألواح :

معروف أن ألواح الطين عرضة الى التهشم بسبب مادتها الرخوة • وهناك حقيقة يعرفها المنقبون الآثاريون وهي ضرورة بذل عناية خاصة عند استخراج رقم الطين أثناء الحفريات وخاصة تلك التي تكون في أرضية كثيرة الرطوبة مما يزيد في احتمال تكسر الرقيم • كما يحرص المنقبون على عدم تعرض الالواح الى تفاوت كبير في درجة الحرارة مباشرة تفادياً للنتيجة نفسها • وهنا تبرز ضرورة أدركها الاقدمون أنفسهم ومن بعدهم المشتغلون في حقل التنقيب عن الآثار الا وهي تقويتها عن طريق حرقها في فرن تحت درجة حرارة معينة مما يزيد في صلابة اللوح ويمنع تهشمه • وقد فعل ذلك القدماء خاصة بالنسبة لبعض الوثائق والعقود الشخصية وبالنسبة لبعض التآليف التي كانت توضع في المكتبات أي تلك التي تتداولها الأيدي من وقت لآخر •

٤ ـ قلم من القصب :ـ

وبالاضافة الى لوح الطين فقد كان الجزء الآخر المتمم لعملية الكتابة هو قلم من القصب مثلث الشكل • وقد أسهم هذا القلم المدبب في اعطاء الشكل المسماري للعلامات والتي عرفت بسبب ذلك بالكتابة المسمارية • وهناك حقيقة ينبغي التأكيد عليها الا وهي ان « الكتابة المسمارية » لا يصح اطلاقها على الكتابات القديمة في مراحلها الاولى لانها كانت ، كما قلنا صورية بالدرجة الاولى ، ولكن

وجد النساخ بمرور الزمن ان رسم صور الأشياء على ألواح الطين كان عملية بطيئة وغير سهلة ولذلك بدأوا في اختزال صورها لتكون على شكل خطوط مسمارية .

٥ ـ المحاة :ـ

كلنا يخطيء أحياناً أثناء الكتابة وكان للناسخين القدماء ، وخاصة المبتدئين منهم ، نصيبهم من الخطأ أيضاً . ولكن كيف يمحو الناسخ القديم ليصحح خطأ ارتكبه على رقيم من الطين ؟ لقد كانت الوسيلة الوحيدة المتيسرة أن يطمس العلامة المسمارية بابهامه ومن ثم يكتب مكانها العلامة الصحيحة . وقد حفظت لنا رقم الطين بصمات كثير من النساخ شاهداً على الامانة في النقل .

٦ ـ المدرسة :ـ

عرفت المدرسة في اللغة السومرية بـ (é-dub-ba) وهو تعبير يعني حرفياً « بيت الالواح » حيث كانت تجري عملية تعليم الكتابة وغيرها من المعارف والعلوم ، ويعرف التلميذ في السومرية أيضاً بـ (dumu-é-dub-ba) أي « ابن بيت الالواح » . ولا يخفى أن كلمة « ابن » يراد بها الانتماء الحرفي الى المدرسة ليس الا[١٠] .

وهناك من الادلة ما يشير الى ان المدرسة ، باعتبارها مركزاً لتعليم الكتابة والقراءة بالدرجة الاولى ، كانت موجودة في بلاد سومر في وقت مبكر يرجع الى حدود ٢٥٠٠ ق.م. وخير دليل على ذلك الاعداد الكثيرة من النصوص المدرسية التي تتضمن قوائم بالعلامات المسمارية المعدة لغرض استنساخها من جانب الطلبة والتي اكتشفت في مدينة شروباك (فارة) في مطلع هذا القرن (١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) .

ويظهر أيضاً ان المدارس انتشرت بصورة واسعة خلال القرون الخمسة اللاحقة (٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م.) في بلاد سومر وأكد بدليل ان التنقيبات في المدن الاثرية المختلفة قد كشفت عن آلاف من الالواح المدونة بشتى جوانب الحياة

اليوميـــة لســـكان البـــلاد • ولنـا أن نفترض على ضوء هـــذه الأعـــداد الهائلة من الوثائق الكتابية ان عدد النساخ ممن تمرسوا في الخط المسماري كان يزيد على بضعة آلاف ناسخ[١١] •

على ان انتشار المدارس بشكل أوسع من أي عصر سابق وتوفر معلومات أوضح عن هيكلها يعود الى الفترة ما بعد ٢٠٠٠ ق•م• ومعروف عن هذه الفترة انها أعقبت مباشرة سقوط سلالة اور الثالثة التي تعتبر آخر سلالة سومرية على المسرح السياسي في التاريخ • وكان من النتائج البارزة عن ذلك الاستعاضة عن اللغة السومرية باللغة البابلية ، لغة الحكام الجدد للبلاد • ولكن بمرور الزمن أحس البابليون أنفسهم بالاخطار المحدقة بالتراث السومري والتي أصبحت تهدده بالزوال وذلك لسبب واضح وهو ان عملية تناقله شفاهاً لم تعد وسيلة مضمونة للحفاظ على ذلك التراث بعد أن أصبحت اللغة السومرية نفسها في الطريق الى الانقراض • وقد أدت هذه الحقيقة الى انتشار حركة واسعة لتدوين التـــراث السومري والى تدريس اللغة السومرية واستنساخ مختلف التأليف السومرية من نسخها القديمة الاصيلة • ولا يخفى ان الفضل في هذه المنجزات كلها يعود الى وجود المدارس التي أصبحت ضمن أشياء كثيرة اخرى ، مراكز لاحياء التراث •

وكاء الاعتقاد السائد لدى معظم الباحثين ان المدرسة كانت جزءاً ملحقـاً بالمعبد • ان لهذا القول نصيب من الصحة وربما بالنسبة لمدارس العصور المبكرة في بعض المدن • غير انه ابتداء من ٢٠٠ ق•م• أصبح للمدارس كيـان مستقل بدليل ان رقم الطين كان يعثر عليها في بيوت سكنية (مدارس) وليس في المعابد • ولابد لنا هنا من التنويه الى ان المدرسة ، خلافاً للمعبد ، في بلاد وادي الرافدين ليست لها سمات معمارية معينة تميزها عن بقية بيوت السكن باستثناء العثور فيها على الالواح المدونة بكثرة وخاصة تلك التي تحتوي على تمارين مدرسية وقوائم بالعلامات التي اعدت من أجل أن يستنسخها التلاميذ أثناء تدريبهم عـلى ضبط أشكال العلامات • ان عثور المنقبين على مثل هذه النماذج الدراسية في أي بنـاء

سكني يكون دليلا أكيداً في الغالب على انه كان مستخدماً بمثابة مدرسة • ولعل من أوضح الأبنية التي كانت معدة لتكون مدرسة هي احدى القاعة المكتشفة في مدينة ماري (تل الحريري) حيث وجدت فوق أرضيتها صفوف متناسقة من المقاعد المستطيلة (مصاطب) المعمولة من مواد بنائية[١٢] •

٧ ـ الطلبـــة :ـ

لم يكن التعليم أيام السومريين والبابليين عاماً ولا الزامياً ويظهر انه كان محدوداً بطبقة الميسورين من الناس دون عامة الشعب بالنظر للكلفة الباهضة للتعليم وللمدة الطويلة التي كان يستلزمها • وكانت الاغلبية الساحقة من المتعلمين هم من الذكور ، ولا غرابة في ذلك اذا ما عرفنا ان تعلم الخط المسماري وضبـط علاماته الكثيرة كان من المسائل الشاقة التي تحتاج الى فترة زمنية طويلة مما جعل انصراف الاولاد اليه أكثر من البنات اللائي كن ينصرفن عادة الى تعلم مسائل لها علاقة بشؤون المنزل والاسرة • ومع ذلك فلدينا أسماء نسوة تعلمن فن الكتابة وتمرسن فيه حتى أصبحن ناسخات شهيرات • ومعظم الناسخات اللواتي جـاء ذكرهن في النصوص المسمارية كن من الكاهنات ومن صنف « ناديتو » عـلى وجه التحديد • ولعل هذه المهنة كانت من العوامل التي وفرت لهن الوقت الكافي للانصراف الى التعلم لأنهن كن يكرسن للخدمة في معابد الآلهة دون أن يكون لهن حق الزواج في معظم الاحيان •

٨ ـ المعلمـون :ـ

وكانت المدرسة في العراق القديم تظم أصنافاً من المعلمين • وكان مدير المدرســة أو ناظـرها يسمى « اوميـــا (Ummia)وهي كلمة تعني أيضاً « الاستاذ » أي رئيس الصنعة أو الحرفة • ولذلك فهي أقرب ما تكون في مدلولها الى الكلمة الدارجة « اسطه » المحرفة عن استاذ • وكان مدير أو ناظر المدرسة يلقب أيضاً « أبو المدرسة » •

ويأتي بعد « الأستاذ » في المرتبة أصناف المدرسين في اختصاصات مختلفة كاللغة والرياضيات والعلوم الحيوانية والنباتية ... ولابد لنا من التنويه الى ان المدرسة في بلاد وادي الرافدين كانت ذات هدف حرفي بالدرجة الاولى وهو تعليم اصول الكتابة أكثر مما كانت مؤسسة أكاديمية . ولذلك فهي في هيكلها العام تشبه دور الكتاتيب أكثر من أي شيء آخر . ولهذا السبب ترد الاشارة في النصوص المسمارية الخاصة بالمدارس الى « الاخ الكبير » (shesh-gal) الذي كان طالباً في مرحلة دراسية متقدمة يوكل اليه المدرسون ، على غـــرار ما يجري في دور الكتاتيب ، مهمة مساعدة المبتدئين من زملائه الطلبة في تحضير واجباتهم اليومية .

٩ـ المنهج الدراسي :ـ

كان التلميذ يقلد كتابة علامات (صورية رمزية وصوتية) يعدها له معلمه. وهي مقاطع بسيطة كان الغرض منها أساساً تمكينه من التمييز بين أشكال العلامات وأصـــواتها : (ra-ri-ru, da-di-du, ba-bi-bu) وهكذا ... وفي مرحلة لاحقة يبدأ التلميذ بتعلم نسخ أشـــكال العلامات المختلفة من قـــوائم يهيؤها له معلمه أيضاً . واذا ما نجح في ضبط أشكالها وأصواتها فانه ينتقـل الى مرحلة متقدمة اخرى يطلب منه فيها أن يستنسخ قوائم مطولة تتضمن مئات الكلمات التي لم تدون بعلامة واحدة وانما بعلامات متعددة . وهكذا يتـدرج وصولا الى كتابة وفهم واستيعاب التعابير والمصطلحات اللغوية والادبية وقواعـد النحـــو .

وبطبيعة الحال لم يكن تعلم الخط وقواعد اللغة السومرية والبابلية يشكل المنهج الدراسي كله ، فهناك معارف وعلوم اخرى كان على التلميذ الالمام بهـا ومعرفة مصطلحاتها قراءة وكتابة ، ففي مجال علم الحيوان وعلم النبات كان عليه أن يعرف أجزاء جسم الانسان والحيوانات المدجنة وكذلك الطيور والأسماك والأشجار والنباتات . وكان عليه بالمثل معرفة أكثر من ألف وخمسمائة فقرة

اخرى تتضمن تعابير تقنية خاصة بالأدوات والحاجات التي كان يستعملها الفرد في حياته اليومية : السفن والقوارب والعربات ، الاشياء المصنوعة من القصب والجلود والمعادن والفخار والانسجة وكذلك صنوف الاغذية والاشربة .

واضافة الى ذلك فقد كان لزاماً على الطالب الالمام بشيء من المعرفة بالتعابير والمصطلحات الجغرافية والطبيعية مما له علاقة بالبلدان والانهار والقنوات والحقول . يضاف الى ذلك ضرورة معرفته بالمصطلحات الادارية والقانونية وبأسماء الحرف والصناعات مما كان سائداً في القطر آنذاك . وأخيرا وليس آخرا فقد كان علم الفلك والرياضيات من الموضوعات الاساسية التي تعنى بها المدرسة العراقية القديمة . اذ كان من واجبات الطالب المدرسية ايجاد الحلول لمسائل رياضية تتعلق بمساحات الحقول أو احصاء عدد الطابوق اللازم لبناء بيت أو معبد أو حساب مقدار النفقات الخاصة باحدى مؤسسات الدولة .

أما ما يتعلق بعلم الفلك فأنه كان من الضروري تدريسه في المدارس لسببين : أولهما من أجل تنظيم تقويم تعتمده الزراعة في القطر أي لمعرفة مواسم زراعة المحاصيل حسب المواسم المختلفة ، وثانيهما يتعلق بالمعتقدات الدينية حيث تصور العراقيون القدماء ، مثل غيرهم من الشعوب القديمة الاخرى ، ان ما يحدث في الكون من تغيرات في الظواهر الكونية المعروفة يؤثر وبشكل مباشر على مجريات حياتهم اليومية مثل كسوف الشمس وخسوف القمر وتغير ألوان وأوقات ظهور نجمة الزهرة .

١٠ ـ يوميات طالب سومري في المدرسة :ـ

على ان أحسن من تحدث عن المدرسة في بلاد وادي الرافدين هو أحد السومريين الذي كان على ما يبدو استاذاً فدون مذكراته عن أيام التلمذة في المدرسة[١٣] . وقد وصلتنا مذكراته على شكل قطعة أدبية تتكون من واحد وتسعين سطراً ، وقد دونت في حدود ٢٠٠٠ ق.م.

ويتحسس القاريء من خلال هذه القطعة انه كان على التلميذ في العصور القديمة ، على غرار زميله المعاصر ، ضرورة الالتـزام بالنظم الانضباطية التي صاحبت المدرسة في كافـة المراحـل التأريخية مثـل وجوب الحضور الى الصف في الوقت المحدد وتجنب الاساءة الى أحد من الزملاء والا فانه تعرض الى غضب المعلم الموكول « بالعصا » .

ويبدأ الكاتب السومري مذكراته بطريقة شـيقة تتخذ شـكل حوار بين سائل والآخر مجيب هو التلميذ فيقول الأول : « اين كنت تذهب عندما كنت صغيراً » ؟ ويجيب التلميذ بقوله : « كنت أذهب الى المدرسة » . ويضيف السائل قائلا : « وماذا كنت تفعل في المدرسة » ؟ وهنا يجيب التلميذ :

كنت أقرأ لوحي وأتناول غدائي
ومن ثم احضر لوحي (الجديد) لانتهي من كتابته
(وقبيل) المساء كانت ألواح التمارين تجلب الي
وعندما أنصرف من المدرسة كنت أعود الى البيت
وعد دخولي البيت كنت أجد أبي جالساً هناك
فأشرح لأبي (ما يتضمنه) لوح تماريني
وبعد أن أمثل أمام أبي كنت أقول :
أنا عطشان ! أعطوني ماء لأشرب
أنا جوعان ! أعطوني خبزاً لآكل
اغسلوا قدمي وهيئوا فراشي
فأني ذاهب لأنام
أيقظوني مبكراً
لكي لا أتأخر والا اقتص مني استاذي .

هنا نجد صورة في غنى عن الشرح والتفصيل يتجلى فيها حرص التلميذ وهو في بداية مسيرته الدراسية الاولى على تحضير واجباته اليومية وما كان يعانيه من تعب وجوع وعطش خلال يومه الدراسي الطويل الذي ما كان لينتهي الا عند المساء • ورغم كل ذلك يتجلى حرص التلميذ على الذهاب الى الفراش مبكراً لكي لا يتأخر عن يوم دراسي مقبل •

وتشرق شمس الصباح وينهض تلميذنا من فراشه مبكراً وها هو يقول عن يومه الجديد ما نصه :

وعندما كنت أنهض في الصباح المبكر

كنت الاقي أمي فأقول لها :

اماه ! اعطني غدائي لأذهب الى المدرسة

فتعطيني امي رغيفين فانطلق

أجل ! لقد كانت تعطيني رغيفين فأذهب الى المدرسة •

ويظهر من تفاصيل مذكرات الكاتب السومري أن يومه الجديد هذا كان عصيباً حقاً • فكل شيء كان على غير ما يرام • فعلى الرغم من نهوضه مبكراً فأنه على ما يبدو ، وصل متأخراً الى المدرسة لسبب أو لآخر فتعرض الى العقاب بسبب ذلك • وعندما قرأ الاستاذ المختص واجبه اليومي وجده ناقصاً بعض الأشياء • وتوالت عليه في ذلك اليوم النحس عقوبات اخرى من المراقبين المسؤولين عن « القيافة » و « السلوك » و « بوابة المدرسة » • ولذا فانه عاد الى بيته بائساً عند المساء فراح يبث همومه الى أبيه ويطلب منه العون لحل مشكلاته المدرسية •

١١ ـ العلاقة بين البيت والمدرسة :ـ

وفي هذا الموضع ينقلنا المؤلف السومري الى موضوع على قدر كبير من

الأهمية الا وهو ضرورة وجود علاقة وثيقة بين البيت والمدرسة لأهميتها في حل كثير من المشكلات التي تواجه الأبناء خلال الدراسة •

اذ يذكر النص السومري موضوع البحث ان والد التلميذ وجه الدعوة الى الاستاذ لزيارة البيت وان الأخير تقبلها شاكراً • وبعد ان استقبل الاستاذ الضيف بالترحاب ، اجلس على كرسي وثير وقام التلميذ بالاشراف على راحته • بعد ذلك بدأ التلميذ بالكلام فشرح كل ما تعلمه من فنون الكتابة والمعارف الاخرى في المدرسة • فكان ذلك الشرح مثار اعجاب الأب الذي قام بدوره بالاشادة بفضل وجهود الاستاذ في تعليم ابنه كل دقائق فن الكتابة المسمارية وحلول المسائل الرياضية على اختلافها • ويشير الجزء الاخير من هذه القطعة السومرية الى ان الاستاذ هو الآخر تحدث وباسهاب الى الطالب مضمناً نصائحه وارشاداته وتمنياته له بالنجاح والتوفيق • ويظهر من السياق العام للنص ان هذا اللقاء أدى الى نتائج مثمرة فعزز الثقة في نفس الطالب وبث فيه روح المثابرة والسعي بعد أن استمع الى رأي استاذه فيه • كما ويذكر النص أيضاً ان والد التلميذ كرم الاستاذ بأن خلع عليه بدلة جديدة وأهداه خاتماً ثميناً •

١٢ ـ مدة الدراسة والعطلة المدرسية :ـ

لاشك في ان الدراسة في المدرسة السومرية والبابلية كانت تستلزم سنوات عديدة حتى يستطيع الطالب معرفة العلامات المسمارية قراءة وكتابة ومعرفة القيم الصوتية والمعاني العديدة لكل علامة منها اضافة الى مفردات المنهج الدراسي الاخرى التي لخصناها في فقرة سابقة • وقد وصلنا نص سومري اكتشفت في مدينة اور[١٤] يلقي الأضواء على عدد الأيام التي كان يقضيها التلميذ شهرياً في المدرسة وعددها ٢٤ يوماً في حين كان يتمتع بعطلة أمدها ثلاثة أيام سماها التلميذ نفسه « أيام الحرية » وبثلاثة أيام اخرى هي « أيام أعيادها (المدرسة) » والتي ما زال مغزاها غامضاً • فها هو التلميذ السومري من مدينة اور يقول عن ذلك ما نصه :

ان حساب أيام بقائي في المدرسة شهرياً كالآتي :

أيام حريتي ثلاثة كل شهر

أيام أعيادها (المدرسة) ثلاثة كل شهر

وفيها (أمكث) أربعة وعشرين يوماً من كل شهر

(انها أيام) حياتي في بيت الألواح • انها أيام طويلة حقاً !

١٣ ـ هموم الآبـاء :ـ

ونختتم حديثنا عن المدرسة العراقية القديمة بالحديث عن موضوع يهمنا نحن الآباء • ذلك هو ما كان يقاسيه الأب أيام السومريين والبابليين من هـم وحزن اذا ما وجد ان ابنه متأخراً في مسيرته الدراسية عن بقية زملائه • وكم من الآباء في عصرنا الحاضر أصابه مثل هذا الهم والحزن عندما يتقاعس ابنه في أداء واجباته المدرسية أو يفشل في اجتياز الامتحان • ان هذا الحرص من جانب الآباء على نجاح أبنائهم في مسيرتهم الدراسية وحياتهم العملية انما ينبعث أساساً من عواطف عميقة وصادقة وقديمة ، كما سنرى ، قدم التاريخ •

ففي حوزتنا الآن نص سومري يتكون مما يقرب من مئة وثمانين سطراً ويبدأ بحوار بين أب وابن له والذي على ما يظهر كان متقاعساً • بعد ذلك يبدأ الأب بتوبيخ ابنه محذراً اياه من مغبة التسكع في الشوارع وضرورة اطاعـــة معلميه ووجوب الذهاب الى المدرسـة للتعلم من خبـرة من سـبقوه في هـذا المضمار[١٥] • ثم يتفجر الأب غضباً وهو يخاطب ابنه فيذكره بانه (أي الأب) حرص كل الحرص على توفير الظروف المناسبة له في سبيل تحصيله العلمي في المدرسة فلم يكلفه يوماً « بالحرث أو قيادة ثور الحراثة » ولم يطلب منه يوماً ما أيضاً « أن يذهب لجمع الحطب » • ثم يوجه الأب أسئلة كثيرة الى ابنـــه مستفسراً منه عما فعله في يومه المنصرم • ويضيق الأب ذرعاً بجواب ابنه المتقاعس فيعاتبه قائلا :

لم أجعلك قط في حياتي تحمل حزم القصب الى الأجمة
ولم تحمل في حياتك حزم البردي التي يحملها الصبيان الصغار
لم أرسلك قط للعمل في حراثة حقلي
لم أرسلك قط لتشتغل عاملا
ولم أقل لك في حياتي : « اذهب واعمل لتعيشني ! »

ويستمر الأب في معاتبة ابنه مذكراً كيف ان أمثاله من الأبناء صاروا يعاونون آباءهم في الزراعة وكيف انهم يحرصون على توفير حاجات آبائهم الضرورية كالسمن والصوف • ثم يزجره بكلمات عنيفة وقاسية فيقول له : « اما أنت فلست رجلا على الاطلاق ! أنت لا تعمل أبداً مثلهم ••• مثل اولئك الأبناء الذين جعلهم آباؤهم يشتغلون ••• أما أنا فلم أجعلك تشتغل مثلهم ! »

ومع كل ذلك فحالما ينتهي الأب من حديثه المطول يكون قد زال عنه غضبه وسرعان ما يرق قلبه وينسى في خلال لحظات كل مسببات ثورته على ابنه • وبدافع من المشاعر الابوية الصادقة تتحول كلماته وعباراته الى دعوات للآلهة من أجل أن تمنح الأبن كل مسببات النجاح في الحياة ، فها هو يقول :

عسى أن يحميك الهك ننا ممن يتشاجر معك
عسى أن يحميك الهك ننا ممن يهاجمك
وان تجد حظوة عند الهك
وأن يعلو شأنك بكرم خلقك
وأن تكون رئيساً لحكماء مدينتك
وأن تذكر مدينتك اسمك في أفضل المجالس
وأن يدعوك الهك بأحسن الأسماء
وأن تجد حظوة عند الهك
وأن تجد حظوة عند الآلهة تنكال •